الفصل الخامس

الجمهورية

٢٤ — ٤٠ هـ (٦٤٤ — ٦٦١ م)

عثمان — محاباته — قتل عثمان — على — عصيان معاوية
وقعة صفين — الخوارج — اغتيال على — نهاية الجمهورية

عثمان

كان فى مكنة « عمر » أن يستخلف بسهولة « عليًّا » أو ابنه « عبد الله » الملقب بابن عمر ، غير أنه أصاخ لضميره وهى صفة لازمته طوال أيام حياته فأوكل أمر الانتخاب إلى عدة من أشراف المدينة . ولكنه بتجنبه الاقتداء بسلفه ارتكب هفوة مهدت السبيل إلى مؤامرات الأمويين الذين نراهم الآن يؤلفون حزبا قويا فى المدينة . والمعروف أنهم كانوا منذ زمن طويل من أشد المنافسين لبنى هاشم (أسرة الرسول) كما كانوا يحملون لهم فى صدورهم أشد الأحقاد والضغائن ، فكثيرا ما طاردوا النبى (صلى الله عليه وسلم) وتألبوا عليه ؛ بل لعلهم لم يعتنقوا الإسلام إلا ببواعث المصلحة الشخصية حتى بعد فتح مكة ؛ إذ رأوا فى انتشار الدين الجديد عاملا من عوامل ارتفاع شأنهم وإعلاء كلمتهم . كذلك كانوا يحقدون على الصحابة الذين حكموا المسلمين وينظرون إلى أعضاء مجلس الشورى ورؤساء الحكومة الأولين بعين الحسد المستور ، وفوق ذلك كانت حياة الحواريين النقية الفطرية مصدراً دائماً لتبكيت ضميرهم على معيشتهم المترفة . ونستطيع أن نقول أنهم وجدوا لهم بسهولة أحلافاً بين رؤساء القبائل الذين يرتبطون معهم بأوشاج الدم والقرابة . فتمكنوا من إبعاد علىّ عن منصب الخلافة ، وبعد مناقشات ومناوشات دارت بضعة أيام وقع الخيار على « عثمان بن عفان » .

الأموى . ومع أنه كان رجلاً فاضلاً ، ورعاً ، أميناً ؛ إلا أنه كان كبير السن ، ضعيفاً . فوقع فى الحال كما توقعوا له من قبل تحت نفوذ أسرته وانقاد إلى كاتبه « مروان بن الحكم » أكثر بنى أمية دهاء . وما أن وقع الخيار على عثمان حتى أقدم « علىّ » بحماسته المعهودة وتفانيه الشديد على مبايعته . وفى أيام عثمان بدأ النزاع القديم الذى استمر أكثر من قرن بين بنى هاشم و بنى أمية وكاد يخمد أواره فى عهد النبى وخليفتيه . ولكن ذلك لم يكن البلاء الوحيد الذى حل بالإسلام فى أيامه إذ أن القبائل العربية التى من طبيعتها الملل من الخضوع للقانون والنزوع إلى الحرية والتى خضعت إلى شخصية النبى وأسلمت القياد لخلفه أبى بكر وصرامة عمر بن الخطاب بدأت الآن فى أيام سيطرة قريش تعود سيرتها الأولى ، وتنقل معها بذور التمرد فى البلاد البعيدة التى هاجرت إليها : كما بدأ يترعرع من جديد ذلك التنافس القبلى القديم الذى كان قد خمد أواره فى عهد الرسول وعاد الآن يجر فى أذياله أسوأ النتائج وأشدها هولاً على المسلمين . و يقول المؤرخون إن « عثمان » عزل معظم العمال الذين كان قد عينهم عمر بن الخطاب واستعاض عنهم بعمال من عشيرته . ومع ذلك فقد بقى الناس خلال الست السنوات الأولى من حكمه محافظين على سكونهم بالرغم من تعسف الحكام واستبدادهم .

أما فى الأمصار البعيدة فقد ظل الجيش منهمكا فى درء الخطر المشترك الذى كان يهددهم جميعا . كذلك أدت غزوات الأتراك فيما وراء النهر إلى استيلاء المسلمين على « بلخ » وفتح « هراة » وكابول ، وغزنه ، كما أدى انتقاض جنو بى فارس إلى إخضاع كرمان وسجستان ؛ وقد حذا عثمان حذو عمر فى تأسيس الحكومات الجديدة فما كاد العرب يستولون على تلك الأمصار حتى اتخذوا الإجراءات الفعّالة لتحسين مصادرها المادية وترقية شؤونها فحفرت الجداول ، وعبدت الطرق ، وغرست الأشجار ، وأسس نظام خاص للشرطة لصيانة الأمن وحماية التجارة .

وقد أدت غارات الجيش البزنطى فى الشمال إلى توغل جنود العرب فى البلاد

المسماة الآن بالأناضول حتى سواحل البحر الأسود ، كذلك فتحوا طرابلس ، و برقة فى أفريقيا ، واستولوا على جزيرة قبرص فى البحر الأبيض المتوسط ؛ وحطموا أسطول الروم الكبير الذى جاء إلى مياه الإسكندرية لغزو مصر من جديد .

وفيما كان الإسلام ينتشر وتخفق رايته على ربوع تلك الأمصار كان على ابن أبى طالب يصرف جهوده فى المدينة لتوجيه نشاط العنصر العربى الناشئ إلى الناحية العلمية ، فشرع مع ابن عمه عبد الله بن العباس فى إلقاء محاضرات أسبوعية فى المسجد الجامع فى الفلسفة والمنطق والحديث والبلاغة والفقه ؛ بينما تفرغ غيرهما إلى إلقاء محاضرات فى شؤون أخرى . وهكذا تألقت نواة الحركة العلمية التى ترعرعت وزهت بعد حين فى « بغداد » عاصمة العباسيين . وفى تلك الأثناء طفق الناس يتذمرون من تصرف الخليفة ومن المقربين إليه ، وارتفعت الشكوى من استبداد الحكام واغتصابهم الأموال وقد تكلم « على » عدة مرات مع الخليفة فى هذا الشأن ولكن « عثمان » بتحريض مروان أبى الاستماع إلى نصائحه وأخيراً جاءت الوفود إلى المدينة تطلب إقامة العدل والإنصاف ، فأعادهم الخليفة إلى أمصارهم بعد أن وعدهم خيراً . ولكنهم ما كادوا يغادرون المدينة حتى عثروا على كتاب بخط « مروان » . وقد قيل انه بختم الخليفة يطلب فيه قتلهم جميعاً فاستشاطوا غضباً وقفلوا راجعين للمطالبة بقتله . ويجب أن نذكر هنا أن بعض أفراد الأسرة كانوا قد ضموا أصواتهم إلى المتمردين ، غير أن الخليفة السيئ الطالع أبى الاستماع إليهم فظنوا أن له ضلعاً فى المكيدة ، وحاصروه فى بيته . ويقال إن أقاربه تخلوا عنه وقت الشدة وهربوا إلى الشام ؛ ولكن عليا وأولاده ومواليه دافعوا عنه دفاعا مشهوداً بحيث لم يستطع المتآمرون أن يتغلبوا عليهم إلا بعد جهد عظيم . وتقول لنا الرواية العربية إن اثنين منهم تسلقا جدار بيته وقتلاه وهو ابن ٨٢ سنة وقيل ٨٦ سنة . وكان ملتحياً ، متوسط الطول ، بارز عضلات الوجه ، وقد كانت تعوزه قوة العزيمة وصلابة الرأى ، غير أنه امتاز بالجود

والكرم ، ويعرف عنه أنه أهدى كاتبه مروان بن الحكم فى عدة فرص أموالا من بيت المال الأمر الذى جلب عليه سخط المسلمين

خلافة على

ولما قتل « عثمان » بويع « علىّ » بالإجماع . وقد كان فى خلال عهد الخلفاء الثلاثة أحد أركان هيئة الشورى فلم يألُ جهداً فى مساعدتهم وتزويدهم بالإرشادات القيمة . كذلك ينسب كثير من الأعمال الإدارية العظيمة التى تمت فى عهد « عمر » إلى إرشاده ، إذ كان فى الواقع يعتمد عليه ويركن إلى نصحه فأنابه عنه مدة سفره إلى الشام . ولكن « عليا » كان دائما فى جميع أطوار حياته مستقل الرأى ، لا يداهن ولا يرائى ، متفرغا إلى العلم وإلى تهذيب أولاده . ويقال إنه حين أفضت إليه الخلافة توجه إلى الجامع ببساطته المعهودة ، وأخذ يتقبل البيعة من الناس (وهو متكئ على قوسه الطويل) وكان فيما قال انه مستعد إلى التنازل عن الخلافة لمن هو أحق بها منه . ويقول مؤرخ فرنسى مشهور[1] :

« يخيل للمرء حينما بويع على بن أبى طالب أن الكل سيطأطئ هامته أمام هذه العظمة المتلألئة النقية غير أنه قدر غير ذلك » فلقد أحاط به فى بادئ الأمر عداء بنى أمية ؛ ولكنه لم يحتط للدسائس ، وأبى أن يقر عمال «عثمان» مدفوعاً بشرف الغاية التى كانت من أبرز ميزاته . وبرغم النصائح التى أسديت إليه لمسايرة الظروف فقد انتزع الأملاك التى أقطعها « عثمان » لأتباعه من بيت المال ، وقسم الخراج طبقاً للقواعد التى سنها « عمر[2] » فجلبت عليه هذه الإجراءات الحازمة سخط الذين أثروا فى العهد السابق . وقد تنازل بعض العمال عن مناصبهم دون مقاومة بينما رفض البعض الآخر النزول على أمر الخليفة الجديد ومن بينهم معاوية ابن أبى سفيان عامل الشام الذى كان قد جمع ثروة طائلة ، وأعد تحت إمرته جيشاً لجباً يدين له بالولاء ؛ وهكذا أعلن معاوية العصيان بعد أن احتاط للأمر واستعد للمقاومة .

---

(١) سيديلو . (٢) المسعودى .

ولكن هذه الأمور لم تكن العقبة الوحيدة التى جابهت أمير المؤمنين الجديد إذ أن طلحة والزبير عند ما رفض طلبهما باستعمال الأول على الكوفة والثانى على البصرة انقلبا عليه ، واستحالت صداقتهما الواهية الأوشاج إلى عداوة نكراء وكذلك « عائشة » بنت أبى بكر وزوج الرسول التى كانت تحقد على « على بن أبى طالب » زادت فى النار اشتعالا ؛ وقد تناسى طلحة والزبير بيعتهما وفرا إلى مكة ثم توجها إلى العراق حيث التحقت بهما عائشة ؛ وهنالك جمعوا جيشاً كثيفاً لمقاومة الخليفة . فبذل « على » ، وقد كان يتبعهم عن كثب ، جهوداً جبارة لإقناعهم بقبول الصلح ، ولكنهم أبوا إلا قتاله ؛ وعندئذ نشبت بينهما معركة حامية فى « الحربية » وأسفرت عن قتل « طلحة » و « الزبير » . كما أعيدت « عائشة » إلى المدينة معززة مكرمة .

وبعد أن استتبت الأمور للخليفة الجديد فى كلدة والعراق سار إلى الشام فقابله جيش معاوية ودارت رحى القتال بين الفريقين فى موقعة «صفين» غربى الرقة . وقد حاول « على » حسم الخلاف بصورة سلمية غير أن « معاوية » بقى متمسكا برأيه ؛ وعندئذ طلب « على » حقنا لدماء المسلمين أن يتبارز الإثنان « وأيهما قتل صاحبه استقامت له الأمور » ، فرفض معاوية قبول هذا الاقتراح . ومما يؤثر عن الخليفة أنه أمر رجاله — بالرغم من تحرش جنود الشام — « ألا يبدأوا القتال ، وألا يطلبوا موليا ، وألا يتبعوا مدبراً » فمنى جيش الشام بالهزيمة فى ثلاث معارك متوالية ، وكاد معاوية يلوذ بالفرار لولا حيلة شريكه « عمرو بن العاص » الذى أنقذه من الهزيمة بأن أوعز إلى الجنود برفع المصاحف على أسنة الرماح والرايات والمطالبة بالتحكيم . وفى الحال توقف جنود الخليفة عن القتال وألحوا على قائدهم « ألا يرد ما دعاه إليه أهل الشام » فغطن « على » إلى مكيدة «عمرو» ، ولكن إلحاح الجيش جعله ينزل على طلبهم ، ووقع الخيار لسوء الطالع على رجل كبير السن ، ضعيف الرأى ، اسمه « أبو موسى الأشعرى » ، ولم يكن

قط كفؤاً « لعمرو بن العاص » ممثل « معاوية » . وهكذا حرم « على » من ثمرة انتصاره بسبب حماقة جنوده ؛ وفى الحال سار مشمئزا إلى الكوفة ، غير أن أولئك الذين رحبوا بفكرة التحكيم فى موقعة صفين عادوا الآن ساخطين عليها ورأوا فيها إثما وأى إثم ، كما أعلنوا عصيانهم وانسحبوا إلى النهروان على حدود الصحراء واتخذوا موقفاً عدائيا شائناً . فأرسل الخليفة إليهم رسولا يدعوهم إما إلى العودة إلى صفوف الجيش ، وأما الرجوع إلى أوطانهم فأبوا إلا مقاتلته ؛ وعندئذ حمل عليهم حملة صادقة حتى أفنى معظمهم ، وفر الباقون إلى البحرين والأحساء حيث كونوا نواة فئة متعصبة[1] أصبحت بمضى الزمن شوكة تقلق مضجع الإمبراطورية الإسلامية بسبب الغارات التى كانت تشنها عليها . وبينما كانت تلك الحوادث تجرى فى تلك الأنحاء ، برهن « أبو موسى » إما على أنه قد خان العهد الذى أؤتمن عليه ، أو أنه وقع فى حبال المكيدة التى نصبوها له فى « دومة الجندل » ، حيث كان « عمرو بن العاص » قد اقترح حقناً للدماء أن يخلعا صاحبيهما ، وأن يقوم أبو موسى ويخلع « عليا » ثم يقدم هو من بعده ويخلع معاوية ؛ ومن ثم يتكلمان باسم من يستخلفان ؛ فقام « أبو موسى » الساذج واعتلى المنبر وأعلن خلع على وما هو إلا أن اعتلى عمرو بن العاص المنبر وأقر خلعه وثبت صاحبه . فأثارت بساطة أبى موسى سخط أصحاب « على » وتساب الطرفان وتفرقا وهما يتوعدان ، فقفل أبو موسى راجعا إلى المدينة . ويقال إن معاوية رتب له المخصصات وقد ظلت الحرب تسعر أوارها ردحا طويلا من الزمن ولولا المشاكل التى جابهها « على » فى الميدان الشرقى لسير جيشا كبيراً على الشام . وعلى هذا لم يحتفظ معاوية بالشام وينادى بنفسه أميراً للمؤمنين فحسب ؛ بل نشر سلطانه أيضاً على مصر .

مقتل على

كان للسم والخنجر أكبر نصيب فى القضاء على أنبل أتباع الخليفة الذى

(١) سميت بالخوارج . (المعرب)

لاقى حتفه هو الآخر بضربة سيف من يد أثيمة ، بينما كان يصلى فى المسجد الأعظم بالكوفة فى اليوم السابع والعشرين من شهر كانون الثانى سنة ٦٦١ م . وهكذا مات أفضل المسلمين قلباً وأسلمهم طوية ، كما يصفه الكولونيل «اسبون» .

كان « على » شهماً ، وديعاً ، محسناً ، رحيماً باليتيم ، معيناً للضعيف ، خصما للظالم ، وعونا للمظلوم ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولو كانت له صلابة « عمر » لنجح فى حكم الشعب العربى المطبوع على الأنفة وحب البداوة ؛ ولكنهم أساؤوا فهم تهاونه فى حقوقه الخاصة وتساهله واستغل أعداؤه مروءته وتمسكه بالصدق لصالحهم الشخصى . ويقال فى وصفه : إنه أدم اللون ، دحداح ، قوى البنية ، يميل إلى السمنة ، طويل اللحية ، له عينان شهلاوان ينمان عن العطف والحنان . وقد أكسبته مناقبه ألقاباً خاصة عرف بها فسمى « أسد الله » لشجاعته ، و « باب العلم » لعلمه وفقهه ؛ وكان فارساً ، مغواراً ، كريماً ، متساهلا إلى أقصى حدود التساهل ؛ ويمكن أن يقال إنه كحاكم قد سبق عصره وجاء قبل أوانه ؛ وتعزا أهم الأعمال الخطيرة التى تمت فى زمن عمر لخير المسلمين إلى مشورته . ولا تزال القصص تقرأ فى المقاهى من حدود القاهرة حتى حدود دلهى بالهند فتحدثنا عن بطولته وحماسته وإنصافه للمظلوم ؛ فهى فى مجموعها تعيد إلينا ذكرى البطولة العربية مجسمة بأجلى مظاهرها فى أشجع فارس عرفه الزمان . وقد أوصى أولاده قبل وفاته بالتواضع ، والبر ، والتقوى ، والإعراض عن حطام الدنيا ، وعدم التأسف على شىء منها ؛ كما طلب بصراحة ألا يعذب قاتله وأن ينفذ فيه حكم الإعدام بضربة واحدة ؛ وقد أجمل المسعودى مناقبه فى قوله : « كان والله علم الهدى ، وكهف التقوى ، ومحمل الحجا ، وبحر الندى ، وطود النهى ، وكهف العلا للورى ، داعياً إلى المحجة العظمى ، متمسكا بالعروة الوثقى ، خير من آمن واتقى ، وأفضل من تقمص وارتدى ، وأبر من انتعل وسعى ، وأفصح من تنفس وقرا ، وأكثر من شهد النجوى سوى الأنبياء والنبى المصطفى ، صاحب القبلتين ،

فلا يوازيه أحد ولا يقارنه بشر » . وكان له من فاطمة ثلاث بنون وأربع بنات وقد توفيت زوجه بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم ببضعة أشهر ولم يتزوج عليها وإن كانت العوائد العربية تسمح له بالزواج من غيرها وقد كانت سيدة مشهورة فى عصرها ذكية القلب حادة الذهن نشيطة الفؤاد تنم أقوالها وأغانيها وحكمها المأثورة عن متانة الخلق وسمو الأفكار ؛ كذلك أكسبتها مناقبها لقب « سيدة النساء » وهو اللقب الذى عرفت به بين المسلمين ؛ وكانت طويلة القامة ، رشيقة القوام ، آية فى الجمال فأطلق عليها اسم « الزهراء » .

ويقول كاتب[1] فيلسوف بهذا الصدد : « مات بموت « على » النظام الجمهورى وطويت صفحة الحكم الذى كان عماده البساطة المشيخية ، ولم يبق بعد زوال الحكومة الانتخابية إلا الفقه والأحكام المستندة إلى القرآن ، ولكن بقيت مع ذلك بعض النزعات الجمهورية تتأجج فى الشعوب الإسلامية فأكسبت الدول الصغرى هيبة وعظمة ، وزادت فى الدول العظمى قوة ومنعة بالرغم من رهط المغتصبين » .

---

(١) اوسلنر فى كتابه (تأثير الدين الإسلامى)